١

بعد سنة واحدة

مشى مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان عبرَ مَتاهةٍ من الشوارع في المدينة الخالدة، راجيًا أن يَجِدَ مَلاذَ سلامٍ داخِلَ نفسه. إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من ذلك. فقد كانت روما قابِضةً للصَّدر. وهو قد نَسِيَ نَتانةَ نهر التَّيبر الملوَّث والاختِلاطَ البشريَّ الضاغِط. أو لعلَّه لم يُلاحِظْ ذلك قطُّ في ما مضى، إذ صرفَه عن الاهتمام انهماكُه المفرِطُ في شؤون حياته وأنشطته الخاصَّة. وعلى مدى الأسابيع القليلة الماضية التي أعقبَتْ عَودتَه إلى المدينة التي وُلِدَ فيها، أمضى ساعاتٍ يطوفُ في الشوارع ويزورُ أماكِنَ طالما تمتَّع بها من قبل. أمَّا الآن فقد كان ضَحِكُ الأصدقاء خاويًا، والانصِرافُ المسعورُ إلى تناوُل الطعام والشراب مُضنيًا بَدَلَ أن يكونَ مُمتِعًا.

وإذ كان مُكتئبًا ومُحتاجًا إلى التَّسلية، وافقَ على حضور الألعاب مع أنتيغونُس. وقد باتَ صديقُه هذا الآن شيخًا ذا نُفوذ، ومن حقِّه أن يجلس في مكانِ شَرَفٍ على البوديُم. وحاولَ مَرقُس أن يُهدِّئَ مشاعِرَه إذ دخلَ صُفوفَ المقاعد وعثرَ على مقعدِه. إلَّا أنَّه لم يستَطع أن يُنكِرَ أنَّه شعرَ بالانزعاج عندما بدأتِ الأبواقُ تصدَح. وقد ضاق صدرُه وصارت مَعِدتُه عُقدةً صُلبةً لـمَّا بدأ الاستعراض.

لم يكُن قد حضرَ الألعابَ منذُ كان في أفسُس. وتساءَلَ هل يقوى على هَضْم مُشاهَدتها الآن. فقد كان واضحًا على نَحوٍ مؤلِم أنَّ أنتيغونُس باتَ مَهووسًا بالألعاب الآن أكثرَ منه لـمَّا غادرَ مَرقُسُ روما، وقد راهنَ بحماسةٍ على مُحارِبٍ من بلاد الغال.

انضمَّت إلَيهما بضعُ نساءٍ تحت الظلَّة. كُنَّ جميلاتٍ ومُنقاداتٍ إلى الشَّهوات، وبيَّنَّ في غضون لحظات بعد قُدومِهنَّ أنَّهُنَّ كُنَّ مُهتمَّاتٍ بمَرقُس اهتمامَهُنَّ بالألعاب. وانبعثَ داخِلَ مَرقُس شيءٌ ما لـمَّا نظرَ إليهنَّ، ولكنَّه سُرعانَ ما تلاشى مثلَما جاء. لقد كانت هؤلاء النِّسوة مياهًا ضحلةً مُلوَّثة لدى مقارنتها بخمرة هَدسَّة الصافية المسكِرة. فلم يجدْ أيَّ سُلوان في أحاديثهنَّ الباطلة الخاملة. حتَّى أنتيغونُسُ الذي كان يُسَلِّيه دائمًا بدأ يشدُّ أعصابَه بتَشكيلةِ نكاتِه البذيئة. وتساءلَ مَرقُس كيف حسبَ يومًا مِثلَ تلك القِصَص الداعرة مُسَلِّيةً، أو شعرَ

بأيَّة شفَقة حِيالَ تَكرار أنتيغونُسَ أخبارَ ويلاته الماليَّة.

ضحِكَت إحدى النِّساء قائلةً: ''احكِ لنا واحدةً أُخرى''. وكان واضحًا أنَّها استمتعَتْ بالنكتة السَّمِجة التي حكاها أنتيغونُس لهُنَّ تَوًّا.

فنبَّه أنتيغونُس، وعيناه ترتقِصان: ''ستشتعِلُ أُذناكِ!''

وقال الجميع: ''واحدةً أُخرى!''

الجميعُ ما عدا مَرقُس. فقد ظلَّ قاعِدًا صامتًا، مُفعَمًا بالاشمئزاز. وجالَ في فكره، إذ راقبَهُنَّ جميعًا، هذا الخاطِر: **إنَّهُنَّ يلبِسْنَ كالطواويس المُغترَّة، ويضحَكْنَ كالغِربان الفظَّة!**

انتقلَت إحداهُنَّ كي تتَّكئ بجانبه. وضغطَتْ جنبَه بِوَركِها لإغرائه. ثُمَّ قالَت مُخَرخِرةً برِقَّة، وعيناها السَّوداوان شاخِصتان إليه: ''إنَّ الألعابَ تُثيرُني دائمًا''.

فتجاهلَها مَرقُس مُشمَئزًّا. وشرعَتْ تتحدَّث بشأن واحدٍ من عُشَّاقها الكُثُر، مُراقِبةً وجهَ مَرقُس لرؤية أماراتِ اهتِمام. إلَّا أنَّها ما زادَتْه إلّا غَثَيانًا. فحدَّقَ إلَيها غيرَ باذلٍ أيَّ جَهدٍ لِكَتم مشاعِره، ولكنَّها تغافلَتْ عن ذلك. ولم يكُن منها إلَّا أن واصلَتْ إغراءَها المقصودَ بكُلِّ دهاءِ نَمِرةٍ تتظاهَرُ بأنَّها هرَّةٌ أليفة.

في أثناء ذلك كُلِّه، استمرَّتِ الألعابُ الداميةُ بلا كَلَل. وكان أنتيغونُس والنِّساء يتَضاحَكون ويسخَرون ويكيلون الشتائمَ جَهرًا على الضَّحايا في ساحة المحاربين. وتوتَّرَتْ أعصابُ مَرقُس بشِدَّةٍ إذْ راقبَ أصحابَه، وإذْ أدركَ أنَّهم يتمتَّعون بما يجري أمامهم من عذابٍ وقتل.

لجأ مَرقُس إلى الشَّرابِ للهُروب، وقد أمرضَه ما كان يُشاهِده. فتجرَّعَ كأسَ خَمرٍ بعدَ أُخرى، جاهِدًا بيأسٍ لإغراقِ صَرَخاتِ الذين في ساحة المحاربين. ومع ذلك، لم يَستطع أيُّ مِقدارٍ من السائل المخدِّر أن يحجبَ الصورةَ التي ما تزالُ تخطرُ في باله... صُورةَ مكانٍ آخرَ وضحيَّةٍ أُخرى. لقد كان يرجو أن تُبلِّدَ الخمرةُ إحساسَه، ولكنَّها بالأحرى جعلَته أكثرَ وَعيًا بشكلٍ أشدَّ حدَّةً.

حَوالَيه، ازدادَت حُشودُ الناس سُعرًا من فرطِ التأثُّر. وتشبَّثَ أنتيغونُس بإحدى النِّساء، وتشابَكا. ودونَ استِدعاء، وافَتْ مَرقُس رؤيا جليَّةٌ... رؤيا أُختِه جوليا. فتذكَّرَ كيف اصطحَبَها إلى الألعاب أوَّلَ مرَّة وضَحِكَ من التأثُّر المضطرم في عينَيها الداكِنتَين.

''لن أُخزِيَك، يا مَرقُس. قَسَمًا! لن يُغمَى عليَّ عند رؤية الدَّم''. ولم يحصُلْ لها ذلك فعلًا.

لا آنذاك.

ولا في ما بعد.

عندها نهضَ مَرقُس، غيرَ قادرٍ أن يحتملَ بَعد.

شقَّ طريقَه عُنوةً عبرَ الجمهور المنتَشي، وأخذَ يصعَدُ الدَّرَج. وما إنْ تمكَّنَ من الأمر، حتَّى أخذ يركُض... كما كان قد فعلَ في أفسُس. لقد أرادَ أن يهربَ من الجَلَبة، من رائحةِ الدمِ البَشَريّ. وإذ توقَّفَ لِلَحظةٍ كي يلتَقِطَ أنفاسَه، أسندَ كَتِفَه إلى جدارٍ حجريّ، وتقيَّأ.

وبعدَ ساعاتٍ من انتهاء الألعاب، كان ما يزالُ في وُسعه أن يسمعَ الرَّعاعَ المتعطِّشين إلى الدِّماء صارِخينَ لأجلِ مزيدٍ من الضَّحايا. وتردَّدَتْ أصداءُ الصَّوت في ذهنه، مُعَذِّبةً إيَّاه.

ولكنْ عندَئذٍ كان ذلك هو كلَّ ما عرفَه منذُ مَوتِ هَدسَّة: العذاب، وفراغٌ قاتِمٌ رهيب.

بعدَ بضعة أيَّام، جاء أنتيغونُس يزورُ مَرقُس، وقال له: "أكُنتَ تتجنَّبُنا؟ لم تأتِ إلى وليمة كراسُس البارِحة. كان الجميع يتوقَّعون مجيئك".

"كان لديَّ عَمَلٌ أُؤَدِّيه". وكان مَرقُس قد فكَّر في العودة إلى روما نهائيًّا، راجيًا رُغمَ قِلَّةِ الرجاء أن يعثُرَ على السلام الذي طالَما تاقَ إليه تَوقًا بالِغًا. وقد عَلِمَ الآن أنَّ آمالَه كانت باطلة. فنظرَ إلى أنتيغونُس وهزَّ رأسَه: "سأبقى في روما فقط بِضعةَ أشهُرٍ أُخرى".

فقال أنتيغونُس: "كنتُ أعتقد أنَّك عُدتَ كي تبقى"، وقد بدا جليًّا أنَّه فوجئَ بما قالَه مَرقُس.

أجاب مَرقُس باقتِضاب: "لقد غيَّرتُ رأيي".

"ولكنْ لماذا؟"

"لأسبابٍ أُفضِّلُ ألَّا أبحثَ فيها".

غامَت عينا أنتيغونُس، وقطرَ صَوتُه تهكُّمًا لـمَّا تكلَّم. "حسنًا، أرجو أن يتَّسعَ وقتُكَ لحضورِ الوليمة التي نَوَيتُ أن أقيمها **على شرفِك**. ولماذا تبدو مُنزَعِجًا جدًّا؟ قَسَمًا بالآلِهة، يا مَرقُس، لقد تغيَّرتَ منذُ ذَهابِك إلى أفسُس. فماذا جرى لك هناك؟"

"لديَّ عَمَلٌ أقوم به، يا أنتيغونُس".

"يُعوِزُكَ أن تُسلِّي نفسَك لتَبديد هذه الأحوال النفسيَّة الكئيبة التي لَدَيك". ثُمَّ غدا مُتمَلِّقًا جدًّا، حتَّى عَلمَ مَرقُس أنَّه سُرعانَ ما سيَطلُبُ مالًا. "لقد رتَّبتُ تسلياتٍ تضمنُ طَرْدَ

أيَّة أفكارٍ سوداءَ ابتُلِيَ بها ذِهنُك''.

وإذْ نَفِدَ صبرُ مَرقُس بانتِظار رحيلِ أنتيغونُس، قال له: ''طيِّب، طيِّب! سآتي إلى وليمتك الدامية''. تُرى، لماذا لا يفهم أحَد أنَّه أرادَ أن يُتركَ وشأنَه؟ ''ولكنْ لا وقتَ لَدَيَّ اليوم للأحاديث السخيفة''.

فقال أنتيغونُس هازئًا: ''قَولٌ لَبِق!'' ثُمَّ نهضَ ليُغادِر. وقد لَمَّ أذيالَ ثيابِه حَولَه، وتوجَّه نحو الباب، ثُمَّ توقَّفَ والتفَتَ إلى صديقه بانزِعاج. ''أرجو مُتيقِّنًا أن تكونَ أحسنَ مِزاجًا مساءَ غَدٍ''.

إلَّا أنَّ مَرقُس لم يكُن كذلك.

كان أنتيغونُس قد أغفلَ أن يقولَ له إنَّ أريا ستكونُ بين الحُضور. وبعد لحظاتٍ من وُصول مَرقُس، رآها. فرَمَقَ أنتيغونُس بنظرةِ انزِعاج، إلَّا أنَّ الشَّيخَ اكتَفى بأنِ ابتسمَ باعتِدادٍ ومالَ نحوَه بخُبث. ''لقد كانت عشيقتَكَ نحوَ سنتَين تقريبًا، يا مَرقُس''. وضحِكَ ضِحكةً خافتة. ''إنَّك تبدو مُستاءً. لم تُخبِرْني بأنَّك افترقتَ عَنها بشكلٍ وُدِّيّ''.

كانت أريا ما تزال جميلة، وما تزال مُصمِّمةً على كسبِ افتِتان كلِّ ذَكَرٍ في الغُرفة، وما تزال غيرَ آبهةٍ بالأخلاق ومُتشوِّقةً إلى أيَّة إثارةٍ جديدة. إلَّا أنَّ مَرقُس لاحظَ تغييراتٍ خفيَّة. فقد حلَّ محلَّ مظهر الشباب الرقيق دُنيويَّةٌ أقسى حَدًّا. ولم يَشتمِل ضَحِكُها على تهلُّلٍ أو سُرور، بل بالأحرى انطوى على صِفَةِ صَفاقةٍ وفَجاجةٍ تُثير الانزِعاج. وقد حامَ حولَها عِدَّةُ رِجال، وهي بالتَّعاقُب عذَّبَت كُلًّا منهم، مُنَكِّتةً عليهم، ومُقدِّمةً تلميحاتٍ مهموسَةً تفتقر إلى الاحتِشام. وأجالَت نظرَها عبرَ الغُرفة، ثُمَّ نظرَت إلى مَرقُس نِظرةَ استِفسار. فعَلِمَ أنَّها تتساءل عن عدم وُقوعه في شَرَكِ الابتِسامة التي أبدَتها له لَدَى دُخولِه. غيرَ أنَّه عَلِمَ تلك الابتِسامة على حقيقتها: طُعمًا لِسَمَكة جائعة.

ومنَ النَّكَد على أريا أنَّ مَرقُس لم يكُن جائعًا. ليس في ما بَعد.

مالَ أنتيغونُس مُقتربًا إليه أكثر. ''انظُر كيف ترنو إليك، يا مَرقُس. في وُسعِك أن تستعيدَها بفَرقَعةٍ من إصبعَيك. إنَّ الرجُل الذي يُراقِبُها مثل كلبٍ أليفٍ هو صَيدُها الحاليُّ، مَترودورُس كراتيواس ميرولا. وما يعوِّضُ عن افتقاره إلى الذَّكاء ما لديه من المال. فهو يكادُ أن يُوازيَك غنًى، غير أنَّ صغيرتَنا أريا تملكُ مالَها الخاصَّ هذه الأيَّام. فإنَّ كِتابَها أثارَ مَوجةَ إعجابٍ ملموسة''.

فقال مَرقُس: ''كِتاب؟'' وأطلقَ ضِحكةً ساخِرة. ''لم أعلَم أنَّ أريا تستطيعُ أن تكتبَ

اسمَها، ناهِيكَ بحَبْكِ كَلِماتٍ كافية لإنشاء جُملة".

"من الجَليِّ أنَّك لا تعرِفُ شيئًا عمَّا كتبَتْه، وإلَّا فما كُنتَ تستخفُّ به. لا يكادُ الأمرُ أن يكونَ مَوضوعَ ضَحِك. فقد كانت صغيرتُنا أرِيا تملِكُ مواهِبَ سرِّيَّةً مجهولةً عندَنا. وقد صارَتْ سيِّدةَ آدابٍ، أو أدَبٍ إباحيٍّ مُثير، بتعبيرٍ أدَقّ. إنَّها مجموعةُ قِصَصٍ مَدارُها فعلُ كُلِّ شيء والإفصاحُ عن كُلِّ شيء. قَسَمًا بالآلِهة، لقد أثارَتِ البَلاء في أوساطِ كِبار القَوم. حتَّى إنَّ واحدًا من الشُّيوخ فَقَدَ زوجتَه من جرَّاء الكِتاب. ليس أنَّه بالى بفُقدان المرأة، ولكنَّ روابِطَها العائليَّة كلَّفَته غاليًا. ويُشاعُ أنَّه قد يُرغَمُ على الانتِحار. إنَّ أرِيا ما كانت يومًا امرأةً يُمكِنك أن تَدعوَها كَتومًا. والآن، أعتقِدُ أنَّها باتَت مُدمِنةَ فضائح. ولَدَيها كَتَبةٌ يشتَغِلون ليلَ نهارَ لإصدار نُسَخٍ من كِتابها الصغير. وثَمَنُ النسخَةِ الواحدة باهِظ".

فقال مَرقُس بجَفاف: "وأنتَ دفعتَه بِلا شكّ".

قال أنتيغونُس ضاحِكًا: "ولكنِّي بالتَّأكيد أردْتُ أن أرى هل تذكُرُني. وهي قد ذكرَتْني فعلًا. في الفصل الحادي عشر. ولكنْ روَّعَني أنَّه ذِكرٌ خاطِفٌ بالأحرى". ثُمَّ التفَتَ نحو مَرقُس بابتِسامةٍ عابِثة. "لقد كتبَت عنك بالتَّفصيل، وبإسهاب. فلا عَجَبَ أنَّ ساراپِيز كانت مُتَيَّمةً بك في الألعاب منذُ بضعة أيَّام. إذْ أرادت أن تتيقَّن بأنَّك كلُّ ما وصفَتكَ به أرِيا". وابتسمَ ابتِسامةً عريضة. "ينبغي أن تشتريَ لكَ نُسخةً وتقرأها، يا مَرقُس. فلعلَّها تستعيدُ لك بعضَ الذِّكرَيات الحُلوة".

"رُغمَ كُلِّ جمالِ أرِيا الفاتِن، فهيَ مَنسِيَّةٌ تمامًا وعلى النَّحو الأفضل".

فقال أنتيغونُس مُتفحِّصًا إيَّاه: "تقديرٌ قاسٍ بالأحرى لامرأةٍ أحبَبتَها في ما مضى، أليس كذلك؟"

"ما أحبَبتُ أرِيا قَطّ". وصرفَ مَرقُس انتِباهَه ناحيةَ الفتيات الراقصات المتَمايِلاتِ أمامَه. فإذا بالجلاجِلِ على كواحِلهنَّ ومعاصِمهنَّ تُصَلصِل فتُثيرُ أعصابَه. وبَدَلَ أن تُثيرَه جَسارةُ رقصِهنَّ الشَّهوانيِّ وأجسادُهنَّ المكسوَّة بالثياب الشَّفَّافة، شعرَ بالخَيبة والخِزي. وتمنَّى لو ينتهي أداؤهنَّ فيُغادِرن.

مدَّ أنتيغونُس يدَه ليُمسِكَ بإحدى النِّساء، وجذبَها إلى حِضنه. وعلى الرُّغم من مُكافحتِها، قبَّلَها بشَغَف. ولـمَّا انكفأ، ضَحِكَ وقال لمرقُس: "اِنتَقِ واحِدةً لنفسك!"

زعقَتِ الفتاةُ العَبدة، فجعَلَ الصوتُ أحشاءَ مَرقُس تنقَبِض غريزيًّا. لقد رأى تِلكَ النَّظرة على وجه الفتاة من قبل... في عينَي هَدسَّة لـمَّا أطلقَ العِنانَ لأهوائه فاضطرمَتْ

حتَّى فَقَدَ السيطرةَ عليها.

"أفلِتها، يا أنتيغونُس".

كان الآخرون يُراقِبون أنتيغونُس، مُتضاحِكين وحاثِّين إيَّاه على التَّشجُّع. وإذْ كان أنتيغونُس ثَمِلًا ومُثارًا، باتَ أصلَبَ في عزمه على المُضِيِّ في سبيله. وزعقَتِ الفتاة.

وجدَ مَرقُس نفسَه واقفًا على قدمَيه. "أفلِتها!"

سادَ الغُرفةَ الصَّمتُ، وحدَّقَت جميع العيون إلى مَرقُس ذُهولًا. أمَّا أنتيغونُس، وهو ضاحِك، فرفعَ رأسَه ونظرَ إلى مَرقُس باندِهاشٍ يَسير. ثُمَّ تلاشَتْ ضِحكتُه. وإذ توجَّسَ خَوفًا، انقلَبَ إلى جانبٍ واحد، وأطلَقَ الفتاة.

فوقفَتِ الفتاةُ على قدمَيها مُتعثِّرةً، وهي تبكي بُكاءً هِستيريًّا، ثُمَّ فرَّتْ مَذعورةً.

رَمَقَ أنتيغونُسُ مَرقُسَ مُغايِظًا. "اعتِذاراتي، مَرقُس. إذا كنتَ ترغبُ فيها رغبةً شديدةً جدًّا، فلماذا لم تقُل ذلك قبلَ الآن؟"

أحسَّ مَرقُس عينَي أريا شاخِصتَين إليه كجمرتَين مُتأجِّجتَين تضطرِمانِ غَيرةً. وتساءل على نحوٍ عابِر أيُّ عِقابٍ ستتلقَّاه تلك الفتاةُ العَبدة على يَدَي أريا من أجلِ شيءٍ لا علاقةَ لها به. وقال بإيجاز: "لم أرغَب في الفتاة، ولا في أيَّة واحِدةٍ أُخرى في هذه الغُرفة".

تموَّجَتِ الهَمَسات، والتفتَتْ بِضعُ نساءٍ إلى أريا، وتكلَّفنَ الابتِسام.

وتجهَّمَ وجهُ أنتيغونُس. "إذًا، لماذا تطفَّلتَ على متعتي؟"

"كُنتَ على وَشكِ اغتِصابِ الفتاة".

فضحِكَ أنتيغونُس بخُشونة. "اغتِصاب؟ لو أُتيحَت لها لُحَيظاتٌ أُخرى، لاستمتعَت بالأمر".

"أشكُّ في ذلك".

تبدَّد ظَرَفُ أنتيغونُس، وقدحَت عيناهُ شَرَرًا إزاءَ الإهانة. "منذُ متى تهمُّك مشاعِرُ عبدَة؟ لقد شاهدتُك تقتنِصُ متعتك بطُرقٍ مماثِلة مرَّةً أو مرَّتَين".

اجترعَ مَرقُس ما بقيَ من خمرٍ في كأسِه، وقالَ مُكَشِّرًا: "لا أحتاجُ إلى تذكيري بذلك. إنَّما أحتاجُ **فعلًا** إلى نَسَمةِ هواءٍ مُنعِش".

ثُمَّ خرجَ إلى الحدائق، ولكنَّه لم يَجِد هُناكَ أيَّ فَرَج، إذْ لحِقَتِ به أريا، وميرولا إلى جانبها. فصرَّ مَرقُس بأسنانه، وتحمَّلَ وجودَهما على مَضَض. وتحدَّثَت أريا بشأنِهما الغراميِّ

كما لو كان قدِ انتهى أمسِ، لا قبلَ أربعِ سِنين. وحدَّق ميرولا إلى مَرقُس، فأخذَتْ هذا الشَّفقةُ على الرجُل. فإنَّ أرِيا استمتعَتْ دائمًا بتعذيبِ عُشَّاقِها.

قالَت بصَوتٍ يقطرُ عَسَلًا: ''هل قرأتَ كتابي، يا مَرقُس؟''

''لا''.

''إنَّه جيِّدٌ تمامًا. ستَستمتعُ به''.

فأجاب: ''لقد فقدتُ تذوُّقي للأمور التافهة''، وحَملَقتُه تتموَّج عليها.

قدحَت عيناها شَرَرًا، ثُمَّ قالت، ووجهُها مُلتَوٍ من الغَيظ: ''لقد كذَبتُ بشأنك، يا مَرقُس. إنَّك كُنتَ أسوأَ عاشقٍ كنتُ معه يومًا''.

فردَّ عليها بتكشيرةِ استِهزاء جافية: ''ذلك لأنِّي كنتُ الوحيدَ الذي مضى مُبتعِدًا عنك وفي عُروقهِ دَمٌ بَعد''. ثُمَّ أدارَ لها ظهرَه، وتمشَّى مُبتعِدًا.

مُتجاهِلًا الألقابَ التي رشقَتْه بها، غادرَ الحديقة. وإذ رجعَ إلى المأدُبة، التَمَسَ التسلية في مُحادَثة المعارفِ والأصدقاء القُدامى. غير أنَّ ضَحِكَهم آلـمَه؛ إذ كانت تسليتُهم دائمًا على حسابِ شخصٍ آخَر. وقد سمعَ الحقارةَ من وراء مُلاحظاتِهم الساخرة، وتلذُّذِهم لَدى روايةِ مآسٍ جديدة.

وإذ تركَ المجموعة، اتَّكأ على أريكة، حيثُ شَرِبَ باكتئاب، وأخذَ يُراقِبُ الحُضور. فلاحظَ الألعابَ التي يلعبونها بعضُهم مع بعض. وكانوا يرتَدون أقنِعةَ التمدُّن، إلَّا أنَّهم نَفَثوا السُّمَّ كلَّ حين. ثُمَّ خطرَتْ له خاطرة: أنَّ مثلَ هذه الحفلات والولائم كانت في ما مضى جُزءًا كبيرًا من حياته، وكان **يتلذَّذ** بها.

أمَّا الآن، فتساءل عن سبب وجوده هُنا... عن سبب رجوعه إلى روما أصلًا.

ثُمَّ اقتربَ أنتيغونُس إليه، مُطوِّقًا بِذَراعه دونَ مُبالاةٍ فتاةً مُرتديةً ثيابًا فاخِرة، ذاتَ بَشَرةٍ باهتة. وقد كانتِ ابتِسامتُها شهوانيَّة، ولها مُنحَنياتُ أفروديت. واستَجابَ جسدُه لحظةً لِحدَّةِ عينَيها القاتمة. لقد مضى زَمَنٌ طويل منذ اختلَى بامرأةٍ آخِرَ مرَّة.

لاحظ أنتيغونُس تقييمَ مَرقُس، فابتسمَ مسرورًا بنفسه. ''إنَّها تُعجِبُك. لقد علمتُ أنَّك ستُعجَبُ بها. فهي مُغرِية جدًّا''.

وإذْ نزعَ ذراعَه عن المرأة، دفعَها دفعةً رقيقة، مع أنَّها لم تكُن في حاجةٍ إلى أيِّ دفع. فهَوَت برِفقٍ على صدر مَرقُس، وحملقَت إليه بشفتَين مُنفرِجتَين. وابتسمَ أنتيغونُس، راضيًا عن ذاته

في ما يبدو. ''اسمُها دِيدَيما''.

أمسكَ مَرقُس بكَتِفَي دِيدَيما، وأبعدَها عنه، مُزَوِّيًا فمَه بابتسامةٍ لأنتيغونُس. فأجالَتِ المرأةُ نظرَها من مَرقُس إلى سيِّدها مُستَفسِرةً، وهزَّ أنتيغونُس كَتِفَيه مُستَهجِنًا. ''يبدو أنَّه لا يُريدُكِ، يا دِدي''. ولوَّح بيَده دونَ مُبالاة، صارِفًا إيَّاها.

حطَّ مَرقُس كأسَه بثَبات. ''إنِّي أُقدِّرُ هذه البادرة، يا أنتيغونُس...''

فقال بسُخرِيَة هازًّا رأسَه: ''ولكنَّك تُحيِّرني، يا مَرقُس. لا اهتِمامَ بالنِّساء. ولا اهتِمامَ بالألعاب. ماذا جرى لك في أفسُس؟''

''شيءٌ لن تفهمَه''.

''جرِّبني''.

ابتسمَ مَرقُس له ابتِسامةً ساخِرة. ''ما كنتُ لأضَعَ حياتي الشخصيَّة في عُهدَة رجُلٍ اجتماعيٍّ نظيرِك''.

فضاقت عَينا أنتيغونُس. وقال برِقَّة: ''في كُلِّ كَلِمةٍ تقولُها هذه الأيَّامَ لَسعةٌ حادَّة. بِمَ أسأتُ إليك حتَّى تَقِفَ مثلَ هذا الموقِفِ الانتقاديّ؟''

هزَّ مَرقُس رأسَه. ''لستَ أنتَ المشكِلة، يا أنتيغونُس. إنَّها هي بجُملتها''.

فسأل أنتيغونُسُ مُتحيِّرًا: ''وما **هي** بجُملتها؟''

''إنَّها الحياة. **الحياةُ** اللعينة!'' فالمتعُ الحسِّيَّة التي تلذَّذ بها مَرقُس في ما مضى باتَتِ الآنَ تُرابًا في فَمِه. ولـمَّا ماتَتْ هَدسَّة، ماتَ معها شيءٌ ما في داخلِه. فكيفَ يستطيعُ أن يشرحَ مثلَ هذه التغيُّرات العميقة المؤلِمة داخِلَ نفسِه لِرَجُلٍ نظيرِ أنتيغونُس- رجُلٍ ما زالت الأهواءُ الجسديَّة تُلهِبُه وتَستحوِذ عليه؟

كيف يستطيع أن يُفسِّرَ أنَّ كلَّ شيءٍ قد فقدَ المعنى في نظره لـمَّا ماتَت فتاةٌ عَبدةٌ من العامَّة في ساحَةِ مُحاربينَ أفسُسيَّة؟

ومن ثَمَّ قال بفتور، وهو يقومُ ليُغادِر: ''أعتَذر، فصُحبَتي رديئةٌ هذه الأيَّامَ''.

تلقَّى مَرقُس دَعَواتٍ أُخرى على مدى الأشهُر الستَّة التالية، ولكنَّه رفضَها كلَّها، مؤثِرًا بالأحرى أن ينهمكَ في مشاريعِ عمله. ولكنَّه لم يجدْ أيَّ سلامٍ هناك أيضًا. فعلى الرُّغم من تعبه واجتهاده، فقد ظلَّ مُعذَّبًا. أخيرًا، عَلِمَ أنَّ عليه أن يتحرَّرَ من الماضي، من روما، من كلِّ شيء.

ومن ثَمَّ باعَ مَقلعَ الحجارة واتِّفاقيَّاتِ البناء الباقية- بربحٍ ضخم لكِلَيهما- غير أنَّه لم يشعُرْ بأيِّ فَخرٍ من الرِّضى في ربحه. والتَقى مُديري المستَودَعات الڤاليريانيَّة على نهر التَّيبر، وراجَعَ الحِسابات. وكان سَكستوس، أحَدُ مُعاوِني أبيه منذ زمنٍ طويل، قد أثبتَ أنَّه مُخلِصٌ للمصالح الڤاليريانيَّة على مدى سنين كثيرة. فعرضَ عليه مَرقُس مَنصِبَ الـمُشرف على الممتلَكات الڤاليريانيَّة في روما، بنسبةٍ مئويَّة سخيَّة من الرِّبح الإجماليّ.

صُعِقَ سَكستوس. ''ما كُنتَ قطُّ كريمًا هكذا، سيِّدي''. وكان في كلماته هذه تَحَدٍّ خَفِيٌّ وارتيابٌ مكتوم.

''لك أن تُوزِّعَ الأموالَ كما تَراه مُناسِبًا، بغيرِ أن أُحاسِبَك''.

فقال سَكستوس بفظاظة: ''ما كنتُ أتكلَّم بشأن المال، بل بشأن السَّيطرة. فما لَم أكُن مُسيئًا الفهم، أعتقِدُ أنَّك تُسلِّمُني مَقاليدَ مُتلكاتِك التجاريَّة في روما''.

''هذا صحيح''.

''هل نسيتَ أنِّي كنتُ في ما مضى عبدَ أبيك؟''

''لا''.

قيَّمه سَكستوس بعينَين مزمومتَين. كان قد عرفَ دَسِمُس جيِّدًا، وعَلِمَ منذ زمن طويلٍ أنَّ مَرقُس قلَّما جلبَ لأبيه غيرَ الغَمّ. فإنَّ طموحَ الشابِّ الفَتِيِّ طالما كان مثل حُمَّى في دمه، مُحرِقًا ضميرَه حتَّى التلاشي. فأيَّ لُعبةٍ كان يلعبُ الآن؟ ''أما كان هدفكَ أن تُسَيطِرَ على مُتَلكات أبيك كما تُسَيطِرُ على مُتلَكاتِك؟''

الْتوى فَمُ مَرقُس بابتسامةٍ باردة. ''أنت تتكلَّم بصراحة''.

''أما كُنتَ ترغبُ في أن تكون الأُمور على هذا المنوال، سيِّدي؟ إذًا، قُل لي الحقيقةَ بأيِّ ثَمَن، ولك منِّي الإطراء المتملِّق''.

تشنَّجَ فَمُ مَرقُس، غيرَ أنَّه تمالكَ طَبعَه. وأرغمَ نفسَه كي يتذكَّرَ أنَّ هذا الرجُل طالَما كان مُخلِصًا لأبيه. ''أبي وأنا عَقَدنا صُلحَنا في أفسُس''.

وظهرَ في سُكوتِ سَكستوس عدم تصديقه.

فحدَّق مَرقُس مُباشرةً في عينَي الرجُل الآخر وثبَّتَ حَملَقَتَه. وقال ببرودة: ''إنَّ دمَ أبي يسري في عروقي، يا سَكستوس. لم أُقدِّم هذا العَرضَ بلامُبالاة، كما أنِّي لا أُضمِرُ أيَّة دَوافعَ خَفيَّة تُشكِّلُ خَطَرًا عليك. لقد فكَّرتُ في الأمر مَلِيًّا في غضون الأسابيع القليلة الماضية.

وأنتَ تولَّيتَ أمَر الحُمولاتِ التي جُلِبَت إلى هذه المستودَعات طَوالَ سبعَ عشرةَ سنة. وتعرِفُ بالاسمِ الرجالَ الذين يُفرِغون حُمولةَ السفن ويخزنون البضائع. وقد قدَّمتَ كلَّ حين حِسابًا دقيقًا عن كلِّ صفقة. فمَن لي أفضلُ منك أستأمِنُه؟" ثُمَّ مدَّ يدَه بالاتِّفاقيَّة المكتوبة. ولكنَّ سَكستوس لم يتحَرَّكْ لأخْذِها.

فقال مَرقُس: "لك أن تقبلَ أو ترفض، كما تراه مناسبًا. إنَّما اعلَمْ هذا: أنِّي بِعتُ مُمتلَكاتي الأُخرى في روما. والسببُ الوحيدُ الذي من أجله لم أبع السُّفُن والمستَودَعات هو أنَّها كانت جزءًا من حياة أبي إلى أبعدِ حدّ. فقد كان عَرَقُه ودَمُه هُما ما بنى هذا المشروع. لا عَرَقي ودَمِي أنا. إنِّي أعرضُ عليك هذا العَرضَ بسبب كفاءتك... إنَّما الأهمُّ أنَّكَ كُنتَ صديقَ أبي. فإنْ رفضتَ عَرضي، سأُدبِّرُ الأمر. لا تُساوِرْكَ شُكوكٌ بشأنِ هذا، يا سَكستوس".

ضَحِكَ سَكستوس ضِحكةً خَشِنة. "حتَّى لو كُنتَ جادًّا بشأنِ البيع، ما كان ذلك في وُسعِك. إنَّ روما تُكافحُ في سبيل البقاء. فالآن الآن، ليس لَدَى أحَدٍ أعرفُه المالُ لشراء مشروعٍ بهذا الحجم وهذه الضخامة".

بدا الفُتورُ في عينَي مَرقُس. "أنا أعلَمُ ذلك يقينًا. إنِّي لستُ ضِدَّ التخلُّص من أُسطولي سفينةً فسفينة، ومن أملاك الميناء مَبنًى فمَبنى".

أدرك سَكستوس أنَّه يعني ما يقول، وصعقَه تفكيرٌ انتِهازيٌّ كهذا. كيف يُعقَل أن يكون هذا الشابُّ هو ابنَ دَسِمُس؟ "لَدَيك أكثرُ من خمس مئة شخص يشتغلون عندَك! أحرارٌ، في مُعظَمهم. ألستَ تهتمُّ بهم وبخَير عائلاتهم؟"

"أنت تعرفُهم أفضلَ ممَّا أعرِفُهم أنا".

فقال سَكستوس، مُلَمِّحًا إلى ما اشتُهِرَ به مَرقُس من حُبٍّ للمال: "إذا بعتَ الآن، فلن تحصُلَ إلَّا على كَسْرٍ يسيرٍ من قيمةِ هذا كلِّه. أشكُّ في أنَّك ستُكمِلُ الأمرَ حتَّى النهاية".

"جَرِّبني". وطرحَ مَرقُس الاتِّفاقيَّةَ المكتوبةَ بينهما على الطاولة.

تخوَّف سَكستوس من الصَّلابة في وَجه الرجُل الأصغر سنًّا، وثباتِ حَنكِه، وتأمَّلَه وقتًا لا بأسَ به. إنَّه لم يكُن يُخادع. "**لماذا؟**"

"لأنِّي لن أُبقيَ حَجَرَ الرَّحى هذا حولَ عُنُقي حابِسًا إيَّايَ في روما".

"وهل تنوي أن تمضيَ إلى هذا الحدِّ البعيد؟ إذا كان ما قُلتَه صحيحًا، وقد عقدتَ

صُلحَك مع أبيك، فلماذا تهدمُ ما أمضى أبوك عُمرًا كي يُنشئَه؟"

فأجابَ مَرقُس ببساطة: "ليس ذلك هو ما أُريد أن أفعلَه، ولكنّي سأقول لك هذا، يا سَكستوس: في نهاية المطاف، رأى أبي كلَّ شيءٍ على أنَّه باطِل، وأنا الآن أتَّفِقُ معه في الرأي". وأشار إلى الاتِّفاقيَّة. "ما جوابُك؟"

"سأحتاجُ إلى وقتٍ كي أُفكِّر".

"لَدَيك الوقتُ الذي يستغرقُه خُروجي من ذلك الباب".

تصلَّب سَكستوس حِيالَ غَطرَسةٍ كهذه. ثُمَّ استرخى. والتَوى فمُه قليلًا. وزفَرَ نَفَسَه وهزَّ رأسَه، مُطلِقًا ضِحكةً رقيقة. "أنتَ مِثلُ أبيك إلى أقصى حدٍّ، يا مَرقُس. حتَّى إنَّه بعدما أعطاني حُرِّيَّتي، كان يعرفُ دائمًا كيف يجعَلُ الأُمورَ تجري على طريقته".

فقال مَرقُس بغموض: "ليس في كلِّ شيء".

أحسَّ سَكستوس ألَمَ مَرقُس. لعلَّه عقدَ **فعلًا** صُلحَه مع أبيه في آخِرِ المطاف، وهو الآن نادمٌ على سِنِي العِصيان التي ضاعَتْ. ثُمَّ تَناوَلَ الاتِّفاقيَّة، ونَقَرَها نَقرًا خفيفًا على كفِّه. وإذ تذكَّرَ الأبَ، تأمَّلَ الابنَ، وقال: "إنِّي أقبَل، بِشرطٍ واحِد".

"حدِّدْه".

"سأتَعامَلُ معك كما سبقَ أن تعامَلْتُ مع أبيك". ثُمَّ طَرَحَ الاتِّفاقيَّةَ على الجَمرِ المتأجِّج في الكانُون، ومدَّ يدَه.

فأمسكَ مَرقُس باليد، وفي حلقِه غُصَّة.

وفي اليوم التالي، عند شُروق الشَّمس، أبحرَ مَرقُس إلى أفسُس.

على مدى أسابيع الإبحار الطويلة، أمضى ساعاتٍ واقفًا على مُقدَّمِ السفينة، والرِّياحُ المالحةُ تهبُّ على وجهه. وهنالك أخيرًا سَمَحَ لأفكاره بأن تتوجَّه إلى هَدسَّة من جديد. فتذكَّرَ وقوفَه معها على مُقدَّم سفينةٍ كهذا، مُراقِبًا شعرَها الأسودَ الناعم مُتطايِرًا حولَ وجهِها، وسيماؤها جِدِّيَّةٌ إذْ تكلَّمتْ عن إلهِها غيرِ المنظور: "**الله يتكلَّم... بصوتٍ في الرِّيح، هادئٍ وخفيف**".

تمامًا كما بدا صوتُها مُتكلِّمًا إليه الآن، هادئًا وخفيفًا، هامِسًا له في الريح... داعِيًا إيَّاه.

ولكنْ إلامَ؟ اليأس... الموت.

لقد تمزَّقَ بين الرَّغبة في نسيانها والخَشيةِ منه. وبدا الآن كما لو أنَّه- وقد فتحَ ذِهنَه لها-

لا يستطيع أن يُغلِقَه مُجدَّدًا.

كان صوتُها قد باتَ حُضورًا مُلِحًّا، مُطلِقًا أصداءَه في أرجاء الظَّلام الذي يعيشُ فيه الآن.